دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الأشربة والطب في الغرب الإسلامي
من خلال النوازل الفقهية

د. أنوزلا مجيد
دكتوراه التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور –المصادر غير الإرادية –كالنوازل الفقهية في جميع المجالات التي عرفها مجتمع الغرب الإسلامي خلال الفترة، ومن ضمنها الجانب الطبي؛ ومما لا شك فيه أن الفقهاء كانت تُعرض عليهم مسائل تتعلق بالطب عن طريق الاستفادة من علاجه ومنافعه الطبية، كما فُصلت في بعض أنواعها؛ فتنوعت أشربة الطب في الغرب الإسلامي الشيء الذي منح للباحث في الجانب التاريخي معطيات تكتنزها هذه النوازل لمعرفة ملامح الطب وتطورها بالغرب الإسلامي، والعلاقة التي ترتبط بين الفقه والطب. كما سمحت عملية استقراء النوازل المخصصة للأشربة وعلاقتها بالطب؛ بالكشف عن علاقة الفقهاء بالطب وطرائق علاجه، ويبدو أن هذا الترابط بين الفقه والطب عمومًا وبالصيدلة وصناعة الأشربة النافعة خصوصًا، هو ما جعل عددًا من الفقهاء يمتهنون الطب والصيدلة. وصفوة القول، أن النظر إلى النوازل الفقهية قد يساعد– قدر الإمكان– على دراسة العلاقة بين الأشربة والطب في شقه التاريخي لمعرفة ملامح التطور الطبي الذي عرفه مجتمع الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطية كما يمكن أن يساهم موضوع الأشربة في دراسة التاريخ الاجتماعي، والكشف بوضوح عن علاقة المجتمع في ارتباطاته بالفقه، حيث مثل الفقه المالكي الإطار القانوني الذي وجه وأطر أغلب أنشطة المجتمع بما في ذلك العلاقة بين الأشربة والطب، أنشطة قد تخالف طموح الدول المتعاقبة على المجال وقد تؤيده، لكنها تظل في عمومها مسندة بالاجتهاد الفقهي المالكي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ أبريل ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٠٨ مايو ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

النوازل؛ الطب؛ الغرب الإسلامي؛ التداوي؛ الأشربة؛ المصادر الدفينة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.332767

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أنوزلا مجيد. "الأشربة والطب في الغرب الإسلامي من خلال النوازل الفقهية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الستون؛ يونيو ٢٠٢٣. ص ٨٠ – ٩٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: anouzlamajid@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

أشاد العديد من الأساتذة والباحثين بكتب النوازل الفقهية، وبينوا أهميتها في الدراسات المتعلقة بالمجتمع وحياة الناس اليومية وكذا الحياة الاقتصادية؛ لكونها تعبر بصدق عن الانشغالات الحقيقية واليومية التي عاشها مجتمع الغرب الإسلامي في جميع المجالات اليومية؛ معربة بكل مصداقية عن المشاكل المعاشة للواقع وقتئذ، علاوة على كونها-النازلة- تناقش حياة الإنسان والأمور الطارئة عليهم، كان لزاما على الفقيه النوازلي المتمكن من المعرفة الدينية وهو القادر على تنزيلها على أرض الواقع؛ الإجابة عن عوام السائلين وخاصتهم. على اعتبار أن هذا الصنف من التأليف -النوازل- أحد مضامير التطبيق العلمي للفقه الإسلامي، ومجالاً خصبًا للاجتهاد والفقه الواقعي[١]، ومن ذلك ما عبر عنه أحد الباحثين عن أهمية النوازل الفقهية أنها "مدعاة إلى أن يعكف عليها المؤرخون والباحثون في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد خصوصا في جوانب الأسئلة والوقائع التي صورت مقدارًا من حياة الأندلسي والمغربي لأنها في معظم الأحيان مقترنة بأحداث واقعية وقضايا يومية"[٢].

لذا فالتعامل مع النوازل كشكل من أشكال الخطاب التراثي أصبح أمرًا تفرضه ضرورة البحث عن مصادر جديدة لكتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وذلك من أجل سد الفراغ الذي يعتري عادة أدب الحوليات، ولا يمكن سد الفراغ الذي تشكو منه الكتابات التاريخية؛ إلا بالرجوع إلى مثل هذه الأجناس من الخطاب، وبالخصوص ما تتضمنه كتب النوازل الفقهية[٣].

ومن بين الأمور التي تطرقت لها النصوص النوازلية أهمية التداوي بالأشربة، وجواز شربها، علاوة عن جواز الخلط بين هذه الأشربة لمعالجة بعض الأمراض التي عرفها المجتمع بالغرب الإسلامي. ولهذا نحاول في هذه المقالة الكشف عن أصناف الأشربة، وأهمية التداوي بها وطرائق ومنافع العلاج بها. إضافة إلى الكشف عن أهمية حرفة الطب وعلاقتها بالأشربة أكثر من باقي الحرف الأخرى، سعيًا لمحاربة الأمراض المتفشية، وقد تراوحت آراء الفقهاء من الأشربة الطبية بين الحلة والتحريم،

لذا رأينا أنه لزامًا علينا كتابة التاريخ الاجتماعي من زاوية أخرى-أي من الكتابات غير الإرادية، والتي كان مسكوت عنها في تجديد الكتابة التاريخية، واعتبارها "وثيقة" لتفسير الظاهرة الحركية في المجتمع، وتتمحور إشكالية المقال في الجانب المتعلق بعلاقة بالأشربة والطب، والكشف عن المضمر فيها.

أولاً: التحديد المفهومي

النازلة[٤]: في المعاجم العربية القديمة تعني في اللغة اسم فاعل من نزل ينزل إذا حل، وهو دليل على وقوع الشدائد التي تنزل بالقوم ومصائب الزمان وخطوب الأيام على الناس[٥]، من الحرب والقحط والأمطار الشديدة والسيول والفتن، ليس هذا فقط، بل حتى المشاكل المرتبطة باليومي وجمعها نوازل، وفي الاصطلاح الفقهي: هي مشكلة عقائدية أو أخلاقية أو ذوقية يصطدم بها المسلم في حياته اليومية، فيحاول إيجاد لها حل يتلاءم وقيم المجتمع بناء على قواعد شرعية[٦]، كما تعني النوازل تلك الوقائع المستجدة والمسائل الحادثة والأقضية النازلة التي يجتهد فيها الفقهاء المجتهدون طلبا لمقاصد الشريعة الإسلامية وكذا تبيان الحكم الشرعي في النازلة[٧].

وتتجلى أهمية النوازل كذلك في تجديد الوثائق كمًا وكيفًا؛ فهي تجدد المناهج المستحدثة في الكتابة التاريخية، لكن شريطة مراعاة بعض الضوابط أثناء دراستها؛ كالفصل بين الخطاب الفقهي والخطاب التاريخي: عن طريق الإلمام باللغة العربية ومبادئ فقه اللغة، إذ المشتغل بالنوازل غالبا يجد أمامه ترسانة من المفاهيم الفقهية، التي يكون لزاما على المؤرخ التمكن منها أو على الأقل مراعاة معانيها في سياقها[٨]. ثم الانتباه إلى واقعية النازلة من خلال التمييز بين ما هو واقعي وافتراضي، بمعنى آخر التأكد من حالة وقوعها عن طريق أسماء الأشخاص من مفتين أو أعلام أو أماكن[٩]، لأن النازلة الافتراضية غالبا ما يتم رفعها من قبل طلبة الفقيه لتبيان رأيه فيها، مع عدم ذكر الأشخاص أو السنوات التي وقعت فيها النازلة[١٠].

علاوة عن توطين النازلة سواء زمانيا أو مكانيا من خلال ربطها بالسنة التي وقعت فيها، أو لوجود قرينة سواء بذكر السلطان أو الحدث أو البلد الذي وقعت فيه، أو اسم المفتي وغيرها من الأساليب المساعدة لتأطيرها زمانيًا أو مكانيًا، وضرورة التمييز بين النازلة الظرفية والبنيوية: فالأولى إنما هي حدث عادي عابر الإيقاع مرتبط بالأشخاص ولا يسمح باستنتاجات عامة عن المجتمع، لأنها مجرد أوضاع تاريخية طارئة. والثانية التي لا يمكن محاصرتها على المدى القصير والمتوسط، إنما هي النازلة التي يتكرر وقوعها عبر أزمنة متعددة وفي أماكن متنوعة[١١].

الأشربة: ينطلق الفقه الإسلامي في مسألة العلاج والتداوي بكل المواد عموما وبالأشربة خصوصًا من منطلق أن الحفاظ على النفس والبدن والعقل من الضروريات الأساسية التي جاءت الشريعة للحفاظ عليها، وحمايتها وتنميتها، مما يجعل العلاقة بين الفقه والطب علاقة وثيقة، إذ إن جميع مسائل الطب تحتاج لأحكام الشريعة وفتاوى الفقهاء واجتهاداتهم بيانا للحلية أو الحرمة أو الكراهة، خاصة عند الضرورة والاضطرار.

وتعدد أنواع الأشربة المستخرجة من المدونات النوازلية، تعكس مدى حاجة الناس اليومية لها، سواء للتزيين والتفاخر والتباهي، أو لسد الحاجة خلال فترتي البرودة والحر، وعند الجفاف والمطر، أو في الاستعمال المتنوع للتطبيب عند العامة من المجتمع، حيث الأشربة أنواع، منها ما هو حرام كالخمر، والنبيذ والطرطر، ومنها ما هو حلال كالماء والخل والسمن واللبن والعسل والزيت، وهو تنوع اقتضى بيان معانيها بإعطاء تعاريف لها، خاصةً تلك المستخرجة من كتب النوازل الفقهية بالعد لا بالحد، بغية الكشف عن مدى علاجها للمرضى، وآراء الفقهاء فيها من خلال مظان النوازل الفقهية.

الخمر: ما أسكر من عصير العنب أو ما أسكر من عصير كل شيء، إذ المدار منه قائم على السكر وغيبوبة العقل، وما سميت خمرًا إلا لأنها تخمر العقل وتستر عندما تخالطه[١٢]، وهي أنواعها عدة، منها الرحيق والزرجون والسبيئة، والسلافة، والشراب، والمدامة. وسميت كذلك بالقهوة لأنها تقهى شاربها عن الطعام، أي تذهب بشهوته أو تشبعه.[١٣]

النبيذ: هو الملقى، ومنه ما نبذ من عصير التمر، أو الزبيب، أو البلح، أو الحنطة، أو الشعير، أو العسل، فيقال نبذت التمر والعسل إذا تركت عليه الماء ليصير نبيذا، وسمي كذلك لأن الذي يتخذه يأخذ تمرًا أو زبيبًا فينبذه في وعاء فيصب عليه الماء، حتى يصير مسكرا، فالنبذ هو الطرح.

السكنجبين: معرب عن كلمة فارسية، سركا تعني الخل، وأنكبين وهو العسل، ويطلق اسم السكنجبين أصلا على الشراب المركب منهما: الخل والعسل[١٤]. وهناك نوعين من السكنجبين الأول يتخذ من الخل الحاذق والسكر، والثاني يتخذ من الخل الحاذق والعسل والسكر.[١٥]

العسل: هو لعاب النحل الذي يخرج من أفواهها، وذلك بأنها تأكل من الأزهار والأوراق ما يملأ بطونها؛ إذ يقوم الله تعالى بتقليبها عسلا، ثم يلقيها من أفواهها، وقد يخرج من أدبارها.[١٦]

اللبن: هو سائل أبيض يكون في إناث الآدميين والحيوانات، كما نجد اللبين المغذى باللبن من الحيوانات[١٧]، والألبان تدخل في مأكولات الغرب الإسلامي، ويستخرج منه الجبن التي تدخل في عمل حلويات المجبنات، وورد ذكره في القران الكريم ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾[١٨]. وقد عرف اللبن بأنه" الإفراز الطبيعي للغدد اللبنية الناتج من الحليب الكامل لحيوان ثديي أو أكثر من نوع واحد من الحيوانات الحلوبة السليمة الخالية من السرسوب[١٩]. فأفضل ألبان الحيوان لبن الأتان، ويليه لبن الماعز، وذلك بأن هذه الألبان في غاية اللَّطافة، وأما لبن الغنم فإلى الغلظ ما هو، ولذلك ما يتحين في المعدة، وأغلظ منه لبن البقر، وهذا اللبن مع أنه أغلظ فهو أكثر دسما.[٢٠] وقد قال أحدهم عن اللبن:

وأين الألبان لأكوابها
في برم الأرز تسكاب[٢١]

الخل: ويعتبر من التوابل وهو تابل مائع، يعمل أساسًا من عصير العنب والتفاح والعنب، قال عنه جالينوس: "هو مركب من جوهرين مختلفين، أعني من جوهر حار

بارد وكلاهما لطيف، والبارد فيه أكثر من الحار، والخل يجفف تجفيفا بليغا حتى يصبح خلا ثقيفا".[٢٢]

الزيت: ويطلق قديما لفظ الزيت على المادة المستخرجة من ثمار الزيتون، وهو غير الدهن الذي يطلق على عصير النباتات كدهن اللوز ودهن الورد...،[٢٣] ويعتبر الزيت مادة أساسية للإنسان نظرا لاستعمالها اليومي في أطعمته، ولقيمتها الغذائية[٢٤]، فهي من أقدم أنواع الأشجار التي عرفها الإنسان، واستطاع في مراحل مبكرة الاستفادة منها في الأكل والدواء، فهو ينفع ويملح ويستخرج منه الزيت. قال تعالى: ﴿والتين والزيتون وطور سنين، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[٢٥].

السمن: مادة تستخرج من حليب البقر أو الغنم أو الماعز، وتذوب على النار لتتحول إلى سمن، ويحفظ مدة طويلة، والسمن نوعان: حيواني ونباتي[٢٦]، وقال عنه جالينوس "أن السمن هو محلل منضج، ولذلك يستعمل في الأورام التي تحدث خلف الآذان، وأورام الإربتين"[٢٧].

الماء: أصله في العربية من "ماه" فبذلت الهاء همزة[٢٨]، وفي اصطلاح علماء الكيمياء: الماء عبارة عن اتحاد الهيدروجين بالأوكسجين، وهو خفيف (ذرتان من الأكسجين وذرة من الهيدروجين)، وثقيل (ذرات من الأكسجين وذرة من الهيدروجين)[٢٩]، ويعد الماء من الناحية الطبيعة جسم متشابه الأجزاء في اللَّطافة والكثافة، لأنه بسيط غير مركب، لكنه كثيف بسبب اشتداد البرد عليه، أو بمخالطة شديدة من الأجزاء الأرضية، والتي من فرط صغرها لا يمكن أن تنفصل عنه وترسب فيه[٣٠]. ويُعَدّ الماء أحد أركان الكون الأصلي، وهو أجل العناصر بعد الهواء، وسيد الأشربة[٣١]. واستحضر الماء في مركبات طبية وعصائر ورباب وجوراش وأشربة.

ثانيًا: الأشربة والطب

لم تكن النوازل الفقهية لتظل بعيدة عن حرفة الطب وصناعة الأشربة للتداوي والعلاج، حيث أشارت إلى عدد من الأشربة المتعلقة بالطب، وفصلت في بعض أنواعها، أشربة تعالج صداع الرأس وجع المعدة وألم النقرس، مما أسهم في ازدهار صناعة الأشربة الدوائية من جهة، وكذا الطب من جهة ثانية. حيث استطاع الطب بهذه الأشربة وغيرها من العقاقير أن يحقق تواصلا مجتمعيا مع عدد الفئات المريضة، وأن يجتهد في صناعة الأشربة الأكثر علاجا حسب المكانة الاجتماعية للفرد، وقدرته على توفير المطلوب من المال.

إن إيلاء الفقهاء للطب تلك الأهمية راجع إلى علاقتها بالإنسان، وكذا لنوعية الأشربة التي يمكن أن تدخل في خانة المحرمات المنهي عنها، لذا كان على الفقهاء التفصيل في هذا النوع من الأشربة، فأشربة الطب التقليدي أملتها الظروف القاسية وطبيعة المناخ، علاوة على الجفاف وضعف مستوى العيش الذي عرفته بلدان الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، بينما أشربة الطب العلمي، ظلت مؤشرا على التمايز الاجتماعي من خلال تخصيصها للعائلات النبيلة أو ذات الجاه أو ذوي المناصب.

لقد أعطى الفقهاء للطب اهتماما في تفكيرهم، ومساحة من عملهم، ليس فقط فيما أبدعه البعض من كتابة عنه، بل فيما اجتهد له البعض من فتاوى هي أجوبة للعديد من النوازل التي عرضت عليهم، حيث تباينت طرق مقاربتها، سواء عبر منحى سد الذرائع، أو من باب ملاحقة المصلحة الشرعية. لقد عاد الفقيه إلى كتب الطب والفلاحة والصيدلة قبل الإفتاء وقبل إعطاء رأيه، وحفز الطبيب قبل أن يستعمل مشروبا فيه شبه التحريم أن يستفتي الفقيه أو الفقه، ولعل هذا أهم منحى يمكن التدليل عليه لبيان سبب تخصيص مبحث عن حرفة الطب والأشربة.

١/٢-الأشربة والتطبيب

تنوعت أشربة الطب في الغرب الإسلامي، ومن ذلك الماء الذي يعالج به عامة الناس، حيث اعتبره العلماء أحد أركان الكون، كما هو أجل العناصر وسيد الأشربة[٣٢]. إلا أن السؤال عن بعضه ظل قائما، حيث سئل البعض من عامة الناس من أهل برقة يشربون من ماء الأمطار، إذا كانت سال واد يشربون منه؟[٣٣].

ومن المعلوم أن الماء استعمل من أجل التداوي من الأمراض، نظرا لما يحتوي عليه من مميزات وفوائد سواء في علاج أمراض المريء والمعدة، فهو ينعش البدن ويحيه، ويمنع عنه الكثير من الأمراض المتعلقة بالأمعاء

جفافها وتنظيفها، وعند سخونة البدن وارتفاع حرارته. إلا أنه يجب التمييز بين الماء الذي فيه القبض اليسير الذي يعمل على ضر المعدة، والشراب المائي القابض القليل الاحتمال للماء الذي هو أنفع الأشياء لهم لأنه قد جاوز حد الماء وبعد عما هو عليه، بينما الماء البارد يبطئ في المعدة ويحدث انتفاخا. وأحسن أنواع الماء ما عمل بالضد، كما أن هذا النوع من الماء يعمل على تقوية وتحسين الهضم وفتح الشهية لمن يشكو من التهاب المعدة[٣٤].

ويعتبر الماء مركب للغذاء إذ يسهل نفوذ الأغذية في العروق والبدن من جهة[٣٥]، ويقاوم ببرودته ورطوبته الحرارة العرضية، ويقمع حدتها، ويمنع أذيتها، ويقطع العطش المتولد عنها من جهة أخرى[٣٦].

هذا وتتجلى فائدة ماء المطر من خلال كونه لا يحتوي على مركبات من طعم أو رائحة مدركة، لأن الألوان والطعوم تدل على تركيب الكيفيات الأربع من فعل الطباع وتأثيرها[٣٧]، وهو أقل المياه رطوبة وأسلمها من العفونة كما يبعد الأضرار عن المعدة لكونه يحتوي على شيء من قبض وتقوية[٣٨].

ويعد الماء كذلك أفضل دواء للحمى، إذ يجتذب المواد الضارة ويطرحها خارج الجسم إما عن طريق البول أو العرق[٣٩]، وهو مفيد لإيقاف قيء الأطفال وضد قيء الإسهال، وناجع لإسكان العطش، علاوة على إيقاف سعال المعدة الملتهبة والغثى ثم العطش[٤٠]. فماء الأنهار خلال شربه يعمل مثلا على تفتيت الحصى ويذهب الصنان لمن اغتسل به على الدوام، ويلين البشرة، ويقطع القمل، ويسرع الهضم، ويشرب على الريق فلا يعدي، ومن فضائله أيضًا أنه ينبه شهوة الجماع إذا شرب على الريق[٤١].

ولما انتشر الجذام الذي هو علة تعفن الأعضاء وتشنجها وبحاح الصوت وتمرط الشعر[٤٢]، أمر الفقهاء بمنع كل من هو مصاب بهذه العلة من "مخالطة الناس في الاستقاء من الماء وماء الوضوء وغير ذلك"، وأمروا أن يجعلوا من يستقي لهم في آنية تفرغ لهم، ويجعلوا معهم رجالا يستقون لهم[٤٣]، وأفتوا بعزلهم عن الناس حتى عن المعاملات التي يختلطون بها مع غيرهم كإمامة الصلاة وغير ذلك[٤٤]. وقد عبرت عن ذلك الأزجال الشعبية التي تحدثت عنهم في مظهر سخرية واستهزاء من قبل المجتمع، حيث عبر الزجالي عن ذلك بقوله: "أقل للمجذام: تكل المكشوف؟ قال: لن يزيد النحس ولا ينقص"[٤٥]، وقوله: "قيل للمجذوب اغسل يدك، قال: ما بعد الجذام علة"[٤٦].

وإذا كان العنب يعتبر سيد الفاكهة على حد تعبير جالينوس[٤٧]، فمن مزايا شرابه تخصيب البدن، وإجلاء المعدة، وانتفاع المريء وقصبة الرئة والصدر، وإسكان السعال ولدغ البول، وتضميد القروح الناتجة عن الكلي[٤٨]، وعلاج المثانة شريطة طبخه في آواني الفخار أو النحاس المطلية بالقزدير[٤٩]، على أن الشرب في هذه الأواني إن أمكن موافق حسن، وأفضل ما يلقى فيه أواني الفضة والذهب وأواني القصدير والرصاص بعده[٥٠]. أما إن كان مزججًا أو حديدًا غسل غسلاً جيدًا مع إبقاء الماء فيه لمدة ويُراق، ثم يعمل له ذلك مرارًا، فإذا ظهر أنه لا يخرج في الماء أثرٌ طهر.

وإذا كان من فوائد رب العنب أن تعجن به بعض الأدوية المستعملة للتقليل من درجة الحرارة في جسم الإنسان[٥١]، فإن الفقهاء ولكثرة فوائده حذروا من مكر بائعيه، وحثوا المحتسب على مراقبة صانعي هذا النوع من الشراب[٥٢]، فعدم إتقانه يؤدي عند شربه إلى إحداث القراقر في الجوف، وفي حالة تحريكه يؤدي إلى تحرق في الدم، وأما إذا استعجل في بيعه دون طبخه وغليه على ما قد علم فحينئذ يكون أكثر ضررا من الأول[٥٣]، إضافةً إلى الخشية من تركه لمدة طويلة حتى يخمر، فذلك يحوله إلى شراب مخمر وقعت حرمته[٥٤].

أما العسل فيعتبر من أعظم الأركان في تدبير الصحة ومعالجة المرض الذي يصيب الفرد، فهو غذاء ودواء لكل داء، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥٥].

هذا ويستعمل العسل كذلك كسواغ لمعالجة الجروح المفتوحة، ولإبادة الطفيليات وآلام الحنجرة، فهو يستعمل كدواء مفرد أو دواء مركب من أدوية مفردة، إذ يستعمل لفتح سدد الأحشاء وكذا للمعاجين الترياقية[٥٦]، علاوة

إلى كونه مفيد بالنسبة للشيوخ إذ يُكَون عنه دم محمود لهم[٥٧]، ويعالج ضعف الشهوة وجميع العلل الباردة في أعضاء الجسم وبرد المعدة[٥٨].

وحرصًا على سلامة المرضى، حث الفقهاء على بائعي وصيدلي العسل ورب العنب، التعاون مع المحتسب ضربا لمكر بعضهم ومنعا من إيذاء الناس. كما دعوا الصيادلة الذين نصبوا أنفسهم بالأسواق وأنصفوا بالجدار، ألا يخلطوا عقار نسخه بوجه من الوجوه إلا بمحضر الأمين عليهم، فيأتون إليه وكل دواء متحول على انفراد حتى يقابل بالدكان وتعد عقاقيره ويخلط الجميع بين يديه، ويحلفهم على أن لا يكثروه بغيره ولا يعجنوه إلا بعسل طيب يؤدون فيه الأمانة والنصيحة[٥٩].

وإلى جانب عصير العنب والعسل، اعتمد نبيذ التمر عند الأطباء القدماء باسم دوساب، حيث حرم الفقهاء استعماله في العلاج، فقد سئل ابن أبي زيد القيرواني (ت. ٣٨٦ ه) عن خلط المرأة نبيذ التمر ونبيذ الزبيب لتجعله في رأسها[٦٠]. ومعلوم أن استعماله عرف خلال الفترة الوسيطية نقاشا حادا بين مؤيد ومعارض لهذه المسألة، فأبو محرز أجاز جواز استعماله والشيء نفسه بالنسبة لعبد الله بن مغيرة الذي دافع عن فكرة جوازه لكون هذا الأخير كان أحد تلامذة أبي حنيفة. بينما بسط أبو حسان اليحصبي المسألة بالقول إن ما ينجر عن شرب الخمر من ويلات في ميداني الأخلاق والاجتماع[٦١].

وقال ابن جزي إن سائر الأشربة المسكرة كالمتخذة من الزبيب والتمر فهي كالخمر عند الإمامين (المالكية والحنفية)، وقال أبو حنيفة أن الأشياء المتخذة من التمر والزبيب يحرم منها ما أسكر لا القليل[٦٢]. كما أن فائدته تكمن في كونه يذهب المرة السوداء والصفراء والبلغم، ويشد العصب ويذهب النصب ويطيب النفس[٦٣].

غير أن ما يهمنا في كل هذه الأشربة فوائدها ومضارها في علاج بعض الأمراض، فالتمر بطيء الهضم يحدث ألما في الرأس، وعسر الاستحالة، ويسدد الكبد والطحال ويولد الحصى في الكلي والمثانة[٦٤]. كما أنه يحدث الصداع والرمد والقلاع والخوانيق ووجع الأسنان عند الإكثار منه[٦٥].

أما الزبيب فهو حار ورطب يغذي البدن غذاء حسنا، ويحسن اللون والكبد ويسخن المعدة والبدن وسائر الجسد، فإذا طبخ الزبيب مع الحلبة في مقدار متساو فيعالج عن طريق الشرب السعال الحاد البارد وأوجاع الصدر المزمنة ومن البهق وضيق التنفس[٦٦]. كما نهى الفقهاء عن استعمال عصيري التمر والزبيب من أجل عنب المرأة به نضوجا لمشط الرأس لكون عصيرها من المحرمات سواء في الشرب أو التداوي أو التمشيط للمرأة[٦٧].

٢/٢-طرائق العلاج

أما طريقة تحضيره للعلاج عن طريق وضع رطل من ماء الورد في الماء فيغلى لمدة معينة فيصفى، ويضاف إلى الصفو رطل من السكر ويطبخ حتى يصير في قوام الشراب[٦٨]. وكان الأطباء ينصحون مرضاهم المصابين بالطاعون بشرب ماء الورد.[٦٩] بينما شراب السكنجبير ففائدته تتنوع حسب الفصول، ففي فصلي الشتاء والربيع تتجلى في شربه على الريق فيُجلي المعدة وينقي الأخلاط الغليظة، أما فصل الصيف فيعمل على حماية الحميات. أما في فصل الخريف فيكمن علاجه في إزالة حرقة البول والسعال.[٧٠] كما يُعَدّ شراب السكنجبير في زمن الوباء علاجا صالحا للمعدة، وبامتزاجه مع شراب التفاح ورب الحصرم، فيعمل على فصد العروق وتعضيد القلب مع تسكين الدم[٧١]. فالمريض يسقى من شراب السكنجبير فإذا شربه فجر له الدم بالموضع الذي تألم فيه، وغالبا ما كان العليل يغمى عليه قبل استخراج المقدار المحتاج إليه من الدم.[٧٢]

ونتيجة لفوائد هذه الأشربة المدروسة، أكد الفقهاء على مزجها لعلاج المرضى من بعض الأمراض التي تصيبهم. فالونشريسي (ت.٩١٤ه) أكد على أن الجمع بينهما جائز باتفاق، لأن أصلهما جميعا واحد يعني من العسل والسكر. قال: "ولا يجوز خلط شراب سكري وعسلي لاختلاف أصليهما، يعني إلا أن يشرب ذلك على الفور، حسبما سبق من الخلاف. ولعله ينزل بما ذكر عن ابن عبد الحكم من المنع في أشربة الطبيب على الصورة التي ذكر عند اختلاف الأصلين".[٧٣]

في مقابل هذا، حث الفقهاء في بعض المدونات النوازلية على إتباع نصائح الطبيب للعلاج، فالعبدري (ت.٧٣٧هـ) قال: يستوجب على المريض أن ينظر في كيفية الشراب الذي وصفه له قبل أن يستعمله. قال الشيخ أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشربة المعروفة المعهودة موجودة في أكثر القرى وأكثر الناس يعرفون تقويمها وتركيبها، غير أني أقول واحدة أن الناس إنما يبيعون الأسماء مثل شراب الورد فإنهم إذا أقاموه أن أقيم بحيث ينفع جاء لونه إلى السواد فهم لا يضعون فيه من الورد إلا ما يغيره، فإذا أفتى الطبيب مثلا بأوقية من شراب الورد أعطاه الشرابي شرابًا عقد منه بالماء شرابًا لا طعم للورد فيه، وكذلك يفعلون بشراب الاسطوخودس وغيره وهو إنما شرب السكر أو العسل الذي أزيلت رغوته فلا ينفع المريض بشيء[٧٤].

كما تميز اللبن الرائب بفوائد جمة، فهو يعالج بعض الأمراض التي أصابت الناس، حيث كانوا يتداوون بشربه من مرض الأرجل؛ إذ سُئل: محمد بن البشير بن القاضي عن لبن الأتن[٧٥]، فأكد أن لا مانع في شربه، ولنا في هذا الصدد عن إصابة رملة بنت مسور بن مخرمة في أحد رجليها، فأجاز لها عبد الله بن جعفر شرب لبن الأتن لما فيه من فوائد للعلاج لمثل هاته العلل التي يصاب بها الإنسان[٧٦].

هذا وقد أجاز الفقهاء خلط لبن المرأة مع دواء بغية العلاج من بعض العلل التي تصيب الصبيان، لكون الاستهلاك ينقل الحكم عن العين ما قالوه في لبن المرأة إذا خلطوه بطعام أو دواء واستهلك فيه ثم أوجِر به صبي: أنه لا حكم له في التحريم على الأصح الأظهر. إذ سئل الونشريسي عن لبن المرأة إذا خلط بطعام أو دواء[٧٧]، فلبن المرأة من أفضل الألبان على حد تعبير أبي الوليد بن رشد.[٧٨] فألبان النساء أنفع للذع العوارض في المعدة وقروح الرئة والأمعاء[٧٩]، وفائدتها أيضًا تكمن في تعديل المزاج وتسهيل الهضم، وتوليد الدم المحمود[٨٠].

وأجاز الفقهاء أيضًا خلط اللبن والعسل للاستشفاء، فقال الباجي: خلط اللبن والعسل وشربهما لا بأس به، قال ابن القاسم في العتبية: ووجه ذلك أن هذا ليس بانتباذ، وإنما هو على معنى خلط مشروبين كشراب الورد وشراب النيلوفر؛ قال ابن العربي: أجرى ابن عبد الحكم النهي عن الخليطين على عمومه حتى منع منهما في شراب الطيب فإن أحدثت الأنبذة المطربة سكرا حرم ذلك. وإن لم تُحدث، فقد قال عبد الوهاب: يجوز شربه ما لم يسكر، يعني أن النهي في هذا على الكراهة. وقال ابن عبد البر: النهي عن الخليطين لم يجيء مجيء تحريم المسكر، فلهذا صار شرابهما مكروها من غير تحريم. وعلل الكراهة أنه إذا جمع بينهما أسرعت الشدة إلى ذلك الشراب وخيف منه الإسكار.[٨١] فشراب العسل ينفع من برد المعدة واسترخائها ومن العلل التي تصيب جسم الإنسان.[٨٢]

في حين تكمن فائدة اللبن في تنقية المعدة من الفضول ورواسب الأغذية شريطة أن يكون اللبن من حيوان صحيح حسن المزاج معتدل الشحم[٨٣]، وحين يخلط اللبن مع العسل فإنه يسهل إطلاق البطن[٨٤]. كما أكد ابن بشكوال (ت.٥٨٦هـ) على مزايا اللبن، فهو دواء للأمراض التي تصيب جسم الإنسان من العلل، فهو دواء يشجع القلب ويذَهب النسيان[٨٥].

ويعتبر البلح (نوع من التمر غير مكتمل النضج) من الفوائد لعلاج الشقاق والجروح العارضة في الحجابة والأمعاء، فصفة علاجه يؤخذ من البلح قدر يفي باستخراج عصيره فيهرس ويعتصر، ويؤخذ مكوك من الأرز فيطبخ بعشرة مكاكي من ماء حتى ينضج ثم يصفى ماؤه، ويضاف إليه عصير البلح فيطبخان حتى يذهب الثلث من السائل ويبقى منه الثلث والشربة منه أوقية بناء فاتر[٨٦]. علاوة على ذلك فالتمر، إذا نقع في اللبن حرك شهوة الجماع، وأنغط الرجل والمرأة عليهما الشبق وتاقت نفسهما للنكاح[٨٧].

كما اعتمد للتطبيب شراب الطرطر وهو نوع من الخمر المصفى الراسب، وعلى الرغم من تأكيد الفقهاء على عدم شربه لكونه من المحرمات التي تسكر الإنسان، إلا أن البعض من العلماء أجاز استعماله في علاج بعض الأمراض كالنقرس[٨٨] الذي هو من الأوجاع العظيمة المبرحة المزمنة، فأجاز محمد بن القاسم العجلاني استعمال الخمر في التداوي (كان حيا أواخر ق ٨هـ) الذي يبدو أن له خبرة ومهارة عريقة واهتمام في مجالي الطب والصيدلة، وذلك راجع إلى كثرة التصانيف والمعلومات الطبية القيمة، علاوة على كونه تتلمذ على يد كبار

الأطباء كالغافقي القرطبي وابن البيطار وابن العواد الاشبيلي وابن وافد وابن وحشية[٨٩]. فالطرطر يستعمل في العلاج عن طريق أن يؤخذ من الطرطار نصف رطل ويعجن لدهن السوسان ويلطخ على أطراف الرجلين والبدن[٩٠].

كما أن فائدة ماء الورد تكمن في معالجة الأمراض لكونه ينفع الحميات الحادة ومن ورم الكبد والمعدة وجميع علل الحر[٩١]. كما يعد ماء الورد فعال في علاج صداع الرأس سواء عن طريق شمه أو طلائه على الرأس، ومفيد كذلك لتقوية الدماغ.[٩٢] ويعمل على علاج الأمراض الباطنية ويفتح الشهية.[٩٣].

ثالثًا: الأشربة الطبية بين المنفعة والصناعة

مما لاشك في أن منافع الأشربة الطبية ما كانت لتتحقق لولا حرص الفقهاء على توجيه الطب والصيدلة والعطارة بأحكام شرعية كانت موجهة لهم، وحرص الأطباء والصيادلة على مراعاة أحكام الفقه، انسجاما مع تكوينهم الجامع بين العلمين، وكذلك حرص العامة على السؤال عن مكونات بعض الأشربة، تحريا منهم وطمأنة لموافقة أفعالهم للشرع، ومن زاوية أخرى، فإن هذا الترابط بين الفقه والطب عمومًا وبالصيدلة وصناعة الأشربة النافعة خصوصًا، هو ما جعل عددا من الفقهاء يمتهنون الطب والصيدلة، ويسهمون في الكتابة عنها، مزاوجة منهم بين الفقه وحرفة الطب. هكذا كشفت النوازل الفقهية خاصة المتعلقة منها بالطب والصيدلة أهميتها المصدرية في الجواب عن سؤال تلك العلاقة بين الفقه والطب في مجتمع الغرب الإسلامي، أو بين الفقه والأشربة الصحية في المجتمع والمجال نفسيهما، فإذا علم أن غاية الفقه هي البحث عن أجوبة لمستجدات عملية اعترضت المكلفين من الناس (أعمال المكلفين)، فهذا يعني أن الفقهاء عرضت عليهم قضايا متنوعة منها ما يتعلق بالأشربة عموما والأشربة الطبية خصوصا، مما جعل الفقيه ملزم بالتعرف على مكوناتها وخصائصها ... تحقيقا لمناط الحكم، الذي لا يمكن التعرف عليه نظريا فقط، ولعل ذلك كان سببا كافيا للعديد من الفقهاء للتخصص في الطب والصيدلة.

١/٣-منافع الأشربة

لجأ العديد من الناس المرضى إلى التداوي بالأشربة، سواء عن طريق الطب العلمي أو الشعبي، حيث أمدتنا بعض النصوص النوازلية بذكر بعض منافعها التي تصيب جسم الإنسان، كنوع من أنواع العلاج، مثل استعمال ماء الأمطار[٩٤] المنعش لطبيعة تركيبته[٩٥]، ورب العنب والعسل وقدرتهما على تخصيب البدن والعلاج، ونبيذ التمر ونبيذ الزبيب وأهميتهما في علاج الأمعاء والجروح وغيرهما، ودور نقع التمر في اللبن في تهييج شهوة الجماع، وأهمية شراب طبخ الزبيب مع الحلبة في علاج السعال الحاد البارد وأوجاع الصدر المزمنة ومن البهق وضيق التنفس، وقدر شراب الطرطر في علاج المصابين بداء النقرس.

هذا ويتضح من خلال بعض النوازل- على قلتها- أنه وعلى الرغم من حظر تناول بعض الأشربة، إما تحريما أو كراهية، فقد تم تحليل البعض منها ضرورة، بسبب قدرتها على علاج بعض مرض، فمرض النقرس الذي أكد الحسن الوزان أن من يصاب به هم ممن اعتادوا شرب الخمر وأكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية[٩٦]، شاع علاجه بشراب الطرطر الذي يدخل في خانة المحرمات. على أن ابن زهر يرجح أسباب المرضى بالنقرس إلى التعب، إذ النقرس حسب تعريفه"يكون ورم في القدمين أو إحداهما، وهو خلط حار في الأكثر ينصب في الأقدام فترم بجملتها، وأكثر ما يكون في النقرس بمن تكون قدماه بالطبع صغيرتين أو بمن التزم المشي من غير اعتياد، وقد يكون من غير أخلاط حادة"[٩٧].

ويرى الونشريسي أن ألبان النساء[٩٨] هي الأنفع للذع العوارض في المعدة وقروح الرئة والأمعاء[٩٩]، كما أن من فوائد اللبن قدرته على تنقية المعدة من الفضول ورواسب الأغذية شريطة أن يكون اللبن من حيوان صحيح حسن المزاج معتدل الشحم[١٠٠]، أما إذا خلط اللبن بالعسل فإنه يسهل إطلاق البطن، وإذا استعمل شراب العسل وحده فإنه ينفع من برد المعدة واسترخائها ومن العلل التي تصيب جسم الإنسان[١٠١].

لقد احتل التداوي بالأشربة مكانة مهمة في مجتمع الغرب الإسلامي، إلى الحد الذي صار الفقه مصاحبا

للطب والصيدلة والعطارة[١٠٢]، بدليل أن عددا من النوازل جاء مصرحا بأنواع الأشربة والسؤال عن صلتها بالخمر والسكر قليلها أو كثيرها.

وحتى تتحقق المنافع والفوائد من الأشربة، فقد حرص الفقه عبر المحتسب إلى ضبط هذه الصناعة والحرفة، يقول ابن عبدون: "لا يبيع الشراب والمعجون ولا يركب الدواء إلا الحكيم الماهر"[١٠٣]، كما دعا ابن زهر إلى ضرورة مراعاة وصفات الطبيب، فـ"الأشربة المعروفة المعهودة موجودة في أكثر القرى، وأكثر الناس يعرفون تقويمها وتركيبها، غير أني أقول واحدة أن الناس إنما يبيعون الأسماء مثل شراب الورد فإنهم إذا أقاموه أن أقيم بحيث ينفع جاء لونه إلى السواد فهم لا يضعون فيه من الورد إلا ما يغيره فإذا أفتى الطبيب مثلا بأوقية من شراب الورد أعطاه الشرابي شرابًا عقد منه بالماء شرابا لا طعم للورد فيه وكذلك يفعلون بشراب الاسطوخودس وغيره وهو إنما شرب السكر أو العسل الذي أزيلت رغوته فلا ينفع المريض بشيء".[١٠٤]

٢/٣-صُناع أدوية الأشربة

إنه ومن خلال استقراء النوازل المخصصة للأشربة وعلاقتها بالطب، يتبين أن الفقهاء لم يكونوا بعيدين عن هذه الحرفة وطرق علاجها، بالنظر فيما يستفتون فيه من تدخلات للأطباء بالشفاء عند تحولها إلى مزيد ألم أو عكس قصدهم، ويبدو أن هذا الترابط بين الفقه والطب عموما وبالصيدلة وصناعة الأشربة النافعة خصوصا، هو ما جعل عددا من الفقهاء يمتهنون الطب والصيدلة، ويسهمون في الكتابة عنها، مزاوجة منهم بين الفقه وحرفة الطب، مثل ابن زهر الذي أكد على أن شراب السفرجل مع المصطكى وخل الليمون وخل الحصرم مع السكر ينفع أصحاب المعدة الضعيفة ويقوى الشهية، وذلك لاحتواء هذا الشراب على المصطكى المعروف بفوائده الصحية والكثيرة؛ إذ يُقوي المعدة ويحلل رطوبتها ورياحها ويُسَكن المغص[١٠٥].

في حين أفرد محمد الشقوري اللخمي (ت.٦٧٦ ه)، وهو الفقيه والطبيب الغرناطي، الذي نصح الناس زمن الطاعون بالأندلس وحثهم على الوقاية والاحتياط منه، وذلك بالعناية بطرق شرب الأشربة في الأواني المخصصة لها، إذ حث الناس على أن الشرب الصالح في أقداح الإنجبار الخالص الذي لم يخالطه غيره من أنفع الأشياء وأبلغها في التحفظ منه، لاسيما إذا أنقع القدح وهو جديد في الخل (التعقيم)[١٠٦]، أما في حالة إصابة جسم الإنسان بأمراض كالمعدة والرئة، فينصح الفقيه الونشريسي استعمال ألبان المرأة إذ هي الأنفع للذع هذه العوارض[١٠٧].

وهذا الفقيه العجلاني عدد فوائد الخمر ومن ضمنه شراب الطرطر للعلاج على الرغم من تحريمه من قبل الفقهاء، إذ أجاز التداوي به، وأكد على فعالية علاجه لمرض النقرس، بحيث يؤخذ من الطرطار نصف رطل ويعجن لدهن السوسان ويلطخ على أطراف الرجلين والبدن[١٠٨]. ومثله عبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري (ت. ٢٣٨هـ)، الفقيه المالكي الذي درس الفقه على مذهب مالك بن أنس،حتى صار من كبار أنصاره، جلس للتدريس في مسجد قرطبة، وكان يقسِّم طلبته مجموعات لا يُسمعهم إلا كتاب الموطأ. حتى ألف فيه كتاب "الواضحة" الذي يعتبر أحسن شرح على موطأ مالك، إضافة إلى كتب أخرى منها كتاب في الطب الذي أفرده لرواية الأحاديث والأخبار المروية في الطب العربي، وقد لجأ فيه أحيانًا إلى شرح بعض غريبها، بل أفرد فصلاً خاصًا للتعريف ببعض الأدوية والأدواء[١٠٩].

أما عبد الملك ابن زهر(ت.٥١٠ه) الذي تلقى الفقه والقراءات وغيرها من العلوم الشرعية، فقد اهتم إلى جانب ذلك بالطب فكان جيد البحث والاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، وكان عالما في مجاله، حتى لم يكن في زمانه مثله، وكانت له نوادر في مداولته للمرضى ومعرفته لأحوالهم وما يجدونه من الآلام بمجرد النظر إلى قواريرهم[١١٠]؛ إذ ألف كتابا في "تذكرة في علاج الأمراض"، وكتاب "الاقتصاد في إصلاح النفوس والأجساد"، وكتابه المعلوم "التيسير في المداواة والتدبير"، وهو الكتاب الذي ألفه للقاضي أبي الوليد بن محمد بن رشد (ت. ٥٢٠هـ)، مما يدل على حرص القاضي ابن رشد الجد على فهم الطب وطرق وأدويته، وترجم كتابه إلى العبرية واللاتينية، وتناوله الأطباء بالدرس والتمحيص، واستفادوا منه في التشخيص وعلم الأمراض وطرقه العلاج.[١١١]

وكذلك كان ابن رشد الحفيد (ت.٥٩٥هـ) العالم الفقيه، الذي إلى جانب اهتمامه بأصول الفقه والقياس والاجتهاد وكلها مجالات ألف فيها مصنفات، اهتم بالطب وأبدع فيه، فألف كتاب "الكليات"، ولخص كتاب العلل والأمراض لجالينوس، وكتاب الأدوية.[١١٢]

أما الصيدلة التي هي قرينة الطب، فبعد تشخيص الطبيب للمرض ووصفه الدواء؛ يحتاج المريض إلى خدمات الصيدلاني، وقد جمع بعض فقهاء الغرب الإسلامي بين تخصصي الفقه والصيدلة، حيث نجد منهم الصيدلاني أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجة السرقسطي (ت.٥٣٣هـ)، وهو عالم موسوعي، عني بالفلسفة والحكمة والطب، له في الطب والأدوية كلام على شيء من كتاب الأدوية لجالينوس[١١٣]، فأكد على أن الأشربة الممزوجة بالسكر تعقد لقطع العطش البلغمي[١١٤]،

وهذا الصيدلاني أحمد بن محمد بن مخلد الغافقي (ت.٥٦٠هـ) الذي صنع شرابا للذي عاقر قرحا[١١٥]، حيث نصح بأخذ أصل هذا النبات ودقه وعجنه بالعسل وشربه فهو نافع للصرع[١١٦]، كما صنع الصيدلاني سفيان الأندلسي (من أهل القرن ٦هـ) أدوية من الأشربة، إذ قال: "الكرفس إذا شربت عصارته بعد التصفية مضافا إليه السكر نفعت من العطش المتولد عن بلغم مالح في المعدة فهو يسكن أوجاعها[١١٧].

وتشير بعض المصادر إلى وجود بعض الحوانيت التي كانت تباع فيها الأدوية والعقاقير، يقصدها الناس ومن بين هؤلاء نجد ابن الجزار الذي خصص مكانا لصرف الأدوية والعقاقير للمرضى سماه "بيت الصرف"، وهذا ما أكده ابن جلجل بقوله: "وكان ابن الجزار قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلاما له يسمى رشيق أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه"[١١٨]، كما كانت هناك دكاكين منتشرة في الأسواق تُنتج فيها الأدوية من قبل الصيادلة، فَرض المحتسب عليهم مراقبة صارمة، لما يترتب عن حياة المرضى من خطر؛ مما دفع المهتمين بالتأكيد على رقابة أسواق بيع الدواء، من خلال التنصيص على الصيادلة الذين نصبوا أنفسهم بالأسواق وانصفوا بالجدار ألا يخلطوا عقار نسخه بوجه من الوجوه إلا بمحضر الأمين عليهم، فيأتون إليه وكل دواء متحول على انفراد حتى يقابل بالدكان وتعد عقاقيره ويخلط الجميع بين يديه ويحلفهم على أن لا يكثروه بغيره ولا يعجنوه إلا بعسل طيب يؤدون فيه الأمانة والنصيحة[١١٩].

خَاتِمَةٌ

إن الهدف الأساس من هذه المقالة المساهمة -ولو بقليل- في دراسة موضوع الأشربة من زاوية المصادر الغير الإرادية-النوازل الفقهية- بغية الكشف عن ما تختزنه من معلومات يمكن استثمارها في البحث التاريخي نظرًا لارتباطها بالواقع الاجتماعي والسياسي والديني والثقافي للمجتمعات الإسلامية، وباعتبارها تعالج قضايا واقعية، وتعكس مواقف الفقهاء من مشاكل عصرهم فهي تقدم صورا عن البنى الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفكرية للمجتمع من جهة، وتمكن من دراسة بعض قضايا المجتمع عبر الزمن الطويل، وفي المجال الواسع من جهة أخرى، مما جعلها مصادر مكملة لمضمون المدونات الإخبارية غير ملغية لها.

وصفوة القول، أن النظر إلى النوازل الفقهية قد يساعد- قدر الإمكان- على دراسة العلاقة بين الأشربة والطب في شقه التاريخي لمعرفة ملامح التطور الطبي الذي عرفه مجتمع الغرب الإسلامي في الفترة الوسيطية كما يمكن أن يساهم موضوع الأشربة في دراسة التاريخ الاجتماعي، والكشف بوضوح عن علاقة المجتمع في ارتباطاته بالفقه، حيث مثل الفقه المالكي الإطار القانوني الذي وجه وأطر أغلب أنشطة المجتمع بما في ذلك العلاقة بين الأشربة والطب، أنشطة قد تخالف طموح الدول المتعاقبة على المجال وقد تؤيده، لكنها تظل في عمومها مسندة بالاجتهاد الفقهي المالكي. كما شكلت الأشربة من كافة أنواعها أحد الأدوية المساهمة في علاج المجتمع بالغرب الإسلامي سواء أكانت عند خاصتهم أم عامتهم، ويبدو أن هذا الترابط بين الفقه والطب عمومًا وبالصيدلة، هو ما حتم على البعض من الفقهاء امتهان حرفة الطب والصيدلة، إسهامًا منهم في الكتابة عنها، كما أن الغرض من دراسة الأشربة هو تيبان المزاوجة بين الفقه والطب، ورسم خريطة الأمكنة لحرفة الطب عن طريق أمكنة بيع العقاقير والأدوية وطرق المحافظة عليها.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن أبي زمنين محمد، **منتخب الأحكام**، تحقيق محمد حماد، (الرباط: منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ٢٠٠٩م)، ص. ٥.

(٢) ابن رشد الجد محمد، **فتاوى ابن رشد**، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ج١، (بيروت: دار الغرب الإسلامي،١٩٨٧م)، ص. ٨٠٠.

(٣) أفا عمر، **نوازل الكرسيفي مصدرا للكتابة التاريخية**، ضمن كتاب: التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة وندوات رقم ٤٦، (المحمدية: فضالة، ١٩٩٥م)، ص. ٢٠٥ .

(٤) تبتدئ كل نازلة بسؤال، غالبا ما يتدخل الفقيه أو جامع الأجوبة من صياغته واختصاره، لأن تلك الأسئلة في صيغتها الأصلية معرضة لأن يعتريها ضعف لغوي واضح.

(٥) عبد الناصر موسى، **المدخل إلى فقه النوازل**، ندوة النوازل الفقهية وأثرها في الفتوى والاجتهاد، كلية الآداب عين الشق، البيضاء (الرباط: المعارف الجديدة، ٢٠١٠م) ص. ١١.

(٦) مزين محمد، **فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الأطروحات:١٢ الرباط، ١٩٨٦م، ج١، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٦م)، ص. ٢٥.

(٧) بنميرة عمر، **النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٧، ط١، (الرباط، مطبعة الأمنية، ٢٠١٢)، ص ٤٦-٤٧.

(٨) بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص.٥٤.

(٩) نفسه. ص، ٥٥.

(١٠) نفسه. ص، ٥٧-٥٩.

(١١) نفسه. ص، ٦٠.

(١٢) الزبيدي عبد الرزاق المرتضي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد العزيز مطر، ج٣، (الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٩٤)، ص. ١٧٦-١٧٧

(١٣) الزبيدي، **تاج العروس**، ج.١، ص. ٣٠٨.

(١٤) الأنطاكي داوود، **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، تحقيق: أحمد شمس الدين، المجلد الأول، (بيروت، دار الكتب العلمية)، ص.١٩٦

(١٥) مؤلف مجهول، **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تقديم وتحقيق ومعجمة: عبد الغني أبو العزم، منشورات مركز ودراسات الأندلس وحوار الحضارات، نصوص ودراسات-١-، (البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٣م)، ص.٢٤٤.

(١٦) الزبيدي، **تاج العروس**، ج٨، ص. ١٦-١٧.

(١٧) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م)، ص.٨١٤.

(١٨) سورة محمد، الآية ١٥. برواية ورش.

(١٩) جعفر عبد الله، **المعاملات الحرارية في مصانع الألبان**، (بيروت: الدار العربية للنشر، ٢٠٠١م)، ص.٢.

(٢٠) مؤلف مجهول، **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة**، ص.٣١٤

(٢١) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج٦، ص.٣٠٣.

(٢٢) مؤلف مجهول، **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة**، ص.٢٧٤.

(٢٣) نفسه، ص.٢٨٨.

(٢٤) نفسه، ص.٢٨٨.

(٢٥) سورة التين، الآية ١. برواية ورش.

(٢٦) مؤلف مجهول، **أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة**، ص.٢٨٧.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد ١٣ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤م)، ص. ٥٤٣.

(٢٩) قلعجي (محمد رواس) وآخرون، **معجم لغة الفقهاء**، ص. ٣٩٥.

(٣٠) الربوة (شيخ)، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، (ستراسبورغ: مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ،١٨٦٥م)، ص. ١٢٧. للمزيد عن مفهوم الماء، يُنظر، بنحمادة سعيد، **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧-٨هـ - إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٧م)، صص.١٧-٢٦.

(٣١) ابن القيم (محمد)، **الطب النبوي**، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ص.٣٠٢.

(٣٢) ابن البيطار (عبد الله)، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، (القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، ١٨٧٤م)، ص. ١٢٧.

(٣٣) **ابن وهب (عبد الله)، المجموع المذهب في أجوبة الإمامين ابن وهب وأشهب**، جمع وتوثيق وتقديم: محمد لحمر، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دعوة الحق، العدد ٣٠٠، ٢٠٠٩م)، ص.**١٢٣**.

(٣٤) الرازي (أبو بكر)، **الحاوي في الطب**، مراجعة وتصحيح: محمد محمد إسماعيل، ج٥، (بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م)، ص.٧٤١.

(٣٥) ابن سليمان إسحاق، **الأغذية والأدوية**، تحقيق: محمد الصباح، (بيروت: مؤسسة عز الدين للنشر والطباعة، ١٩٩٢م)، ص.٥٩٨.

(٣٦) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص.٥٩٨.

(٣٧) نفسه، ص.٥٩٩.

(٣٨) نفسه، ص.٦٠٠.

(٣٩) ابن أبو الجزار إبراهيم، **طب الفقراء والمساكين**، تحقيق وجيهة كاظم آل طعمة، (طهران: مؤسسة مطالعات إسلامي، ١٩٩٤م)، ص.٤٢.

(٤٠) بلكامل البيضاوية، **الماء: أنواعه واستعمالاته في المداواة من خلال كتاب" أمراض المريء والمعدة"** لأبي بكر محمد زكريا الرازي، دعوة الحق، العدد ٣٩٢، (المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٢٠٠٩م) ص. ١٣١-١٣٨.

(٤١) ابن أبي زرع، ابن أبي زرع علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م)، ص: ٣٥.

(٤٢) الخوارزمي أبو عبد الله محمد، **مفاتيح العلوم**، (بيروت: دار المناهل، ٢٠٠٨م)، ص.١٥٣.

(٤٣) البرزلي (أبو القاسم بن أحمد البلوي)، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م)، ج٣، ص. ٢٢١.

(٤٤) نفسه، ج١، ص.٣٠٧.

(٤٥) الزجالي أبو يحيى عبيد الله، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، ج٢، (فاس: مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، ١٩٧٥م) ص.٢٣.

(٤٦) نفسه، صص. ١٠-٢٣.
(٤٧) الخطابي محمد العربي، **الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، مدخل ونصوص**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م)، ص.١٠٨.
(٤٨) نفسه، ص.٢٦٧.
(٤٩) نفسه، ص.١٠٩.
(٥٠) ابن رزين التجيبي علي، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان صورة من فن الطبخ في الأندلس والمغرب في بداية عصر بني مرين**، حققه وقدم له: ابن شقرون محمد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م)، صص.٤-٥
(٥١) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص.٢٦٧.
(٥٢) السقطي، **آداب الحسبة**، ص. ٣٤.
(٥٣) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص.١٠٩.
(٥٤) نفسه، ص. ١٠٩.
(٥٥) سورة النحل: الآية ٦٩. برواية ورش.
(٥٦) الخطابي، ص. ١٢٥.
(٥٧) الخطابي، ص. ١٢٥.
(٥٨) نفسه، ص. ٢٦٥.
(٥٩) السقطي، **آداب الحسبة**، ص. ٣٤.
(٦٠) ابن أبي زيد (محمد عبد الله بن عبد الرحمن القيرواني)، **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق: محمد الأمين بوخبزة وآخرون، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩م)، ج ١٤، ص. ٢٨٩.
(٦١) المجدوب عبد العزيز، **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥م)، صص.٧٥-٧٦.
(٦٢) ابن جزي محمد بن أحمد الغرناطي، **القوانين الفقهية**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ، د.ت)، ص.١١٧.
(٦٣) ابن بشكوال عبد الملك، **الآثار المروية في الأطعمة السرية والآلات العطرية**، تحقيق وتخريج ودراسة: أبو عمان محمد ياسر الشعيري، (الرياض: أضواء السلف، ٢٠٠٤م)، ص. ٢٣٨.
(٦٤) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص. ١٩٧.
(٦٥) ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ص. ١٤٠.
(٦٦) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص. ١٩١-١٩٢.
(٦٧) الونشريسي، **المعيار**، ج ١١، ص. ٨٤.
(٦٨) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص.٤٦٧.
(٦٩) حافظي علوي، **واحات بلاد المغرب من القرن ٤هـ-٨هـ**، ج٣، ص.١٠٩٥.
(٧٠) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص. ١٢٩.
(٧١) حافظي علوي، **واحات بلاد المغرب من القرن ٤هـ-٨هـ**، ج٣، ص.١٠٩٧.
(٧٢) نفسه، ص.١٠٩٥.
(٧٣) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، (منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨١م، دار الغرب الإسلامي، بيروت)، ج ١١، ص. ٨٤.
(٧٤) ابن الحاج، **المدخل**، ج٣، ص.١٤٣.
(٧٥) الأُتُن: البن الرائب.
(٧٦) ابن حبيب عبد الملك السلمي، **طب العرب**، تحقيق وتخريج وتقديم: بدر العمراني الطنجي،(بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٧م)، ص.٦٤.
(٧٧) الونشريسي، **المعيار**، ج ٦، ص. ٣١١.
(٧٨) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص. ١٧٢.
(٧٩) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص. ٥٦.
(٨٠) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص. ٥٦.
(٨١) الونشريسي، **المعيار**، ج ١١، ص. ٨٣.
(٨٢) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص٢٦٥.
(٨٣) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص.٦٥٦.
(٨٤) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص. ٥٥٤.
(٨٥) ابن بشكوال، **الآثار المروية في الأطعمة السرية والآلات العطرية**، ص. ١٤٦-١٥٢.
(٨٦) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص. ٢٦٨.
(٨٧) العزفي محمد بن يحيى بن أبي طالب عبد الله العزف، **الاكتفاء في طلب الشفاء**، (الرباط: مخطوط بالخزانة الحسنية)، ضمن مجموع رقم: ١٠٤٤، عاش بسبتة، الكتاب يضم في ثناياه الأمراض التي تصيب جسم الإنسان من الرأس إلى القدم، ويذكر فيه وسائل العلاج في عشرين بابا توفي سنة ٥٧٦٨. يُنظر: لسان ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص.١١.
(٨٨) النقرس: ورم في المفاصل لمواد تنصب إليها ولاسيما مفصل الإبهام الذي يسمى نقروس، ومن هذا اللفظ أخذت تسمية النقرس الذي يصيب مدمني الخمر آكلي الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة والشهية، يُنظر الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص. ١٥٦.
(٨٩) العامري محمد بشير، **دراسات في جوانب أبحاث حضارية أندلسية في العلوم والفنون**، ضمن كتاب دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، (عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع،٢٠١٢م)، ص.١٧٨.
(٩٠) العجلاني محمد بن قاسم، **رسالة في حفظ الصحة ومعالجة الأمراض**، مخطوط ضمن مجموع رقم :٦٤٩٩ (الرباط: المكتبة الحسنية).
(٩١) الخطابي، **الأغذية والأدوية**، ص.٢٦٤.
(٩٢) نفسه، ص.٤٤٦.
(٩٣) نفسه، **الأغذية والأدوية**، ص.٤٦٧.
(٩٤) ابن وهب، **مجموع المذهب في أجوبة الإمامين**، ص.١٢٣.
(٩٥) الرازي، **الحاوي في الطب**، ج٥، ص.٧٤١.
(٩٦) الوزان، الوزان(حسن)، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي- محمد الأخضر، (بيروت دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣)، ج١، ص. ٨٣.
(٩٧) الشمري غازي، **ابن زهر الأندلسي رائد التجريب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٦م)، ص. ١٦٠.
(٩٨) الونشريسي، **المعيار**، ج ٦، ص. ٣١١.
(٩٩) ابن سليمان، **الأغذية والأدوية**، ص. ٥٦.
(١٠٠) نفسه، ص. ٥٦.
(١٠١) الخطابي، **الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي**، ص. ١٧٢. ٢٦٥.
(١٠٢) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص.٢٤٣.
(١٠٣) ابن عبدون، ابن عبدون (محمد بن أحمد)، **رسالة في القضاء والحسبة، ضمن كتاب** "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م)، ص. ٤٧.

(١٠٤) ابن الحاج، **المدخل**، ج٤، ص.١٤٣.

(١٠٥) ابن زهر أبو مروان عبد الملك، **التيسير في المداواة والتدبير**، تحقيق: ميشيل الخوري، ج٢، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣) ص. ٤٤٦.

(١٠٦) الشقوري محمد بن علي اللخمي، **النصيحة**، ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، تحقيق: محمد حسن، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، (قرطاج: بيت الحكمة، ٢٠١٣م)، ص. ٢٦٣.

(١٠٧) الونشريسي، **المعيار**، ج٦، ص. ٣١١.

(١٠٨) العجلاني، م.س، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، ضمن مجموع ٦٤٩٩.

(١٠٩) ابن حبيب عبد الملك السلمي، **طب العرب**، ص.١٦.

(١١٠) النويهي عبد السلام محمد، **موسوعة الحضارة الإسلامية علم النبات والصيدلة عند العرب**، (القاهرة: د.ط، د.س) ص. ١٧٣.

(١١١) الخطابي محمد العربي، **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م)، ج١، ص. ٢٨٤.

(١١٢) النباهي أبو الحسن المالقي، **تاريخ قضاة الأندلس**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، (بيروت: منشورات دار الأفاق الجديدة، ١٩٨٣م)، ص. ٩٨-٩٩.

(١١٣) الخطابي، **الطب والأطباء**، ج١، ص.٥٨.

(١١٤) ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ج١، ص. ٦٠.

(١١٥) عاقر قرحا: نبات له ساق وورق وإكليل يشبه إكليل السنيث، وزهر شبيه بالشعر، ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ج٣، ص. ١١٥.

(١١٦) ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ج٣، ص. ١١٦.

(١١٧) نفسه، ج٤، ٥٥.

(١١٨) أبي داوود سليمان بن حسان الأندلسي، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق: فؤاد سيد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ص.٨٩

(١١٩) السقطي، **آدب الحسبة**، ص. ٤١-٤٦.